

لُغَةُ الْعَرَبِ

مَجَلَّةٌ شَهْرِيَّةٌ أَدَبِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ

من السنة ٥

الجزء ٤

علم القوميات العراقية

Folklore irâquien.

عند علماء الغرب اليوم فرع من العرقيات (الاركيولوجية) اسمه علم القوميات Folklore يبحث عن اداب الاقوام ومآثوراتهم واوابدهم وخرافاتهم ومعتقداتهم وعاداتهم واخلاقهم واذانهم الى ما جارى هذا المجرى .

واول مرة جاء ذكر « علم القوميات » كان في سنة ١٨٣٦ في المجمع الانكليزي المسمى « اثنسيوم » إلا ان حقيقة هذا العلم اقدم من اسمه بكثير ثم في اواخر المائة الثامنة عشرة للمسيح نشر ما كفرنس الانكليزي كتابا سماه «مقاطيع من الشعر القديم» ثم جاء علماء سائر الامم الافرنجية ونشروا ما يدخل تحت هذا الباب وزادوا عليه ووسعوه .

وبعد سنة ١٨٨٠ نشأت في ديار الافرنج جمعيات وشركات عديدة غايتها البحث عن اغاني العوام وتقاليدها ومآثوراتها وامثالها واوهامها والاعباها وخرعيلاتها ومضحكاتها ومبكياتها . وبكلمة واحدة ، عن كل ما يتعلق بالعامية باي وجه كان .

واليوم نرى في ديارهم مجلات وجرائد تنشر مثل هذه المباحث ، فضلا عن الاسفار التي توضع لمثل هذه الغاية ، فيقبل على مطالعتها الناس اي اقبال !

اما الغرض من الوقوف على هذه الانباء فهو معرفة البيئة الفكرية بل الجو الفكري الذي يستشقه القوم الفلاني ليكون الباحث على بيته مما كان عليه ذلك القوم من حالة العلم والحضارة وتتبع لغاته او لغياته التي توصله بالاقوام والقبائل او الاجيال التي نطقت بها ، فيقف على اصلهم ووطنهم الاول ، ويعرف كيف ان القوي ابتلع الضعيف في كل مزية من مزاياها ، وبأي شيء بدأ ليتعلم او يزدهر ويضمم فيتمثل ، وبأي شيء او بأي اثر اثر فيه كما يقف على حقيقة ضعف القوم الذي انحط الى غير ذلك من الحقائق التي لاتأتينا ابدا عن لسان الفصحاء من الكتاب بل عن عوامهم ، لان الفصحاء قد افقوا انشاء بل صناعة كتابية هي غير ما ينطقون به او يسمعون ، بل يتنون ما يوافق اهواءهم واهواء من يميلون اليه وينسبون ما يفيدون به الاجيال الالنية التي تود الاطلاع على دخائل الامور التي ساقتهم الى ما اتولا منها كل ذلك العمل .

اما الديار العربية اللسان فليس لها من هذا القبول شيء يذكر وما دون منه اغلبه للاجانب . وكنا نحن قد جمعنا الامثال العامة ، وحكايات العوام من السنة اليهود والنصارى والمسلمين فذهب اكثرها فريسة غائلة الحرب وبقي عندنا منها شيء نزر . وكان غيرنا قد شرع بنشر امور مختلفة في هذه المجلة لمل هذا الفراغ ثم اتقطع البحث باحتجاب المجلة وعبث الحرب المشؤمة ، بكل اثر من اثار الادب والتاريخ والعلم والصناعة .

وها نحن اولاء نعود الآن الى ما شرعنا به سابقا ، وقد اودعنا الامر الى احد شباننا النوايع في هذا العراق الفض وهو الصديق الودود احمد حامد من آل الصراف ، ولانظن ان احدا ينكر عليه هذا التخصص القومي ، ومن يطالع هذه المقالة وما يتلوها يشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع .

[لغة العرب]

١ - أول سماعي للخرافات

تم ! (فقد جاء الطنطل ، جاء الفول ، جاءت السلوة)

بهذه الكلمات وامثالها كانت تخيفني (جدتي) بئمة ان اضطجع في فراشي وان اقلع عن الهرج الذي كنت احدثه ليلا ، وبهذه الكلمات كانت تخيف جدتي اخي الصغير . وكان لهذه الكلمات وقع شديد في فؤادي بل كانت تقع على رأسي وقوع الصاعقة او الداهية ، فكان يترنني النعر والقزح ، وكنت احس بقشعريرة في جسدي واشعر بان يدا تريد ان تخطف قلبي من بين اضلعي . وكما ليلة بت فيها ساهرا خائفا لم اذق فيها طعم الكرى من هول تلك الكلمات وما كانت تتلفظ به جدتي اي (الطنطل او الفول او السلوة) حتى كنت تراني خائدا جامدا كمن اصابت زمانة او شلل فكنت لا ابدي حراكا وكانت تتمثل امام عيني اشباح تقذف الرعب في قلبي .

ولئن زاوني الكرى في الليل فكنت اخاف غمرات احلام مزعجة ورؤى هائلة وكنت مع شدة خوفي من هذه الالفاظ الج لاجاة الطفل ، والحق الحامحا كثيرا على جدتي ان تقص علي نيا (الطنطل) وحديث (الفول) و (السلوة) وكانت جدتي من المعجزة اللائي لم يرزقن علما ولم يبلن تهديبا وكانت اميمة تهبل القراءة والكتابة وقد عاشت في وسط جاهل وبيئة خرافية وكانت تعتقد بالجن والطلاسم والاحاجي والسحر على نمط عجائز هذا اليوم .

٢ - الطنطل

وقد وصفت لي الطنطل (١) وانا يومئذ لم ابلغ السابعة او الثامنة من العمر ، قالت : « الطنطل يشبه الرجل إلا انه عظيم الجثة كبير الرأس وهو اضخم من الجاموس او الفيل وهو يأوي الى الخرائب ويقف ليلا تحت الطيقان وهو جبار يخطف العقول ويصرع الناس صرعة لاثمضة بعدها . واذا اراد الانسان ان يتخلص منه اخذ معه مخيطا (اي مسلة او ابرة ضخمة) وغرزها في مذا كبره فانه ينقلب للحال حمارا او حيوانا آخر يركب الانسان » .

(١) وزان طنطل . وما يروى هنا عن الطنطل قد يرويه اخرون بصورة اخرى وينسبون اليه حكايات غير هذه الحكايات فطنطلنا طنطل اللوذيين يعنيه اي Tantara ل.ع

٢ - الفول

وضورت لي (الفول) (١) بصورة رجل يشد على رأسه عقالا وكوفية ويأخذ معه سلاحا على الغالب وهو يسكن المغلور والكهوف ويتقسل في اليد بسرعة البرق مفتشا عن انسان حتى اذا صادف واحدا من بني آدم حدثه بالعنيد الكلام والطف العبارات وجرا الى مغارته او كهفه حيث يلاقي حنقه فيكون شواء لذيذا وطعاما سائفا ، وقالت عن وجهه : انه يشبه وجه الكلب ولهذا يسئل عليه برقا فيه وصواصان (والوصواص خرق في البرقع بمقدار عين تنظر فيه) اما ارجله فكأرجل الانسان استقامة إلا ان ظلفين يقومان مقام القدمين . والفول يخاف (المسحاة) فاذا عرفه الرجل وصاح باعلى صوته « اين المسحاة؟ » فر الفول هربا ولم يلتفت الى ورائه .

٤ - السملوة (والسملوة)

وضورت لي (السملوة) (١) بصورة امرأة طويلة سوداء ذات شعر كثيف طرطية اي ذات ثدين عظيمين كل واحد منهما اكبر من الزق بل كالذن الكبير والسملوة تسكن تحت الماء وهي تحوم حول الاجراف لتخطف رجلا تتخذها لها بعلا اما اذا عثرت على امرأة فانها تمزقها وتاكلها ، وقد ذكرت لي اخبارا لتقضي بوجودها ، فقد قالت لي ان احدى النساء حدثتها عن خروج (السملوة) في (بروانة) وقد اشتركت في اللطم والنواح على رجل كريم من اهل (بروانة) و (بروانة) (٢) بلدة واقعة على الفرات في انحاء هيت وعانة وآلوس . قالت وقد وقفت (السملوة) تنوح وتشد :

تبكي الحديث (٣) وعانة (٣) على القرم (٤) ابن بروانة
على النبي عيش (السملوة) ومن بعد ما حكينا

(١) السملوة يضم الاول والثاني وتشديد الواو المفتوحة هي بلسان المراقبين ما يسميه الفصحاء بالسملوة

وحكايات الفول والسملوة عند السلف اشتهر من ان تذكر فهي من مختلفات الخيال اليدوي . (ل.ع.)

(٢) الكلمة مأخوذة من الفارسية بروانة ومعناها الدولاب لان الدوليب او النواير تكثر فيها (ل.ع.)

(٣) اسم بلدة على الفرات (٤) الشاب القوي السيد الكريم (ل.ع.)

وقالت ايضا : ان سملوة جلست ذات يوم على جرف نهر دجلة وجلست على الجرف الاخر سملوة اخرى فخالطت الواحدة الاخرى طالبة منها (سملوة) لانها :

فقلت لها : (خبي خواتي) - اي يا اختاه .

فاجابتها الاخرى : (عزي وحياتي)

فقلت لها : (عندك علاج للصلايح أمسي بعالج من أفاده) - اي أمسك

علاج للصلايح (وهو ابنها) فقد امسى يقاسي (يعالج) آلاما اصابته فؤاده .

فقلت لها الاخرى : خالفة بابائنا الخمسة : لا اثر للعلاج لدي . وهذا

صارتها :

« وحق زيدج زمديدج - مكم - والجيش - والطير - ما عندي غيار »

اي لا املك شيئا ولو بقدر ذرة القبار .

٥ - خرافات اخرى

اجل ١ بهذه المعجائب كانت تحدثني جدتي . وقد فتحت عيني متتبعا لبعض

العوائد من ذلك ان اهلي كانوا لا يخطون لي ثوبا يوم الثلاثاء .

ولا يرحلون بي الى بلد آخر يوم الجمعة .

وكانوا لا يسطون الجار (ملجا) اذا جنح العصر او قارب المساء .

واذا صرخ بي استاذي او ضربني ابي قالوا (اخترع) اي فزع فجأؤوا

(بالحرم) واحرقوه بالنار واداروه على رأسي ثلاثا .

وكانت التمانم والحروز والطلاسم لا تفارق صدري .

وكنتم اشتركت مع الرجال والنساء عند قيامهم بتمثيل دور (حمير الشيعي)

الذي ساجدك عنه قريبا .

وبالجملة فقد كنت في الصغر صبيا خرافيا اعتقد بكل ما كانوا يحدثوني به

بيد اني نشأت وفي نزعة شديدة الى معرفة هذه الامور الخفية والاسرار

الغامضة .

٦ - انقشاع سحب الخرافات عن فكري

فلما بلغت العاشرة انجيت بي الى بغداد فوجدت ابواب المدارس وثقت من العلم

والتهذيب ما كان كافيًا لازالة ادران الخرافات واوساخ الاساطير من رأسي .
وبقيت عدة اعوام اتلقى علومي في المدارس حتى كان عام ١٩١٨ فمكنت مديرا
لمدرسة كربلاء فمن لي اذ ذاك ان ادرس هذه العوائد والاوابد وان اثبت
حقيقتها ، فكنت اغشى الاعراس والمآتم واسائل هذا وذاك بلوغا الى
امنيتي .

ثم تجولت في اغلب مدن الفرات ودونت تلك العوائد العجيبة حتى حلول
سنة ١٩٢٧ فكتبت ما يقرب من نصف والف اسطورة وبوبتها باحثا عن علة كل
منها فاستطعت ان الم بكثير من اسبابها وكان بودي ان ارجع كل خرافة الى
اصلها الاصيل وموطنها الاول الا اني احجمت عنها اخيرا لان معرفة منشأ الاساطير
العراقية يحتاج الى درس اوابد الامم الاسوية كافة وهذا يحتاج الى عمر اطول
من عمر نوح اذ ان دراسة مثل هذه الاوابد تموقف على دراسة التاريخ بصورة
عامة مع معرفة العوائد والعقليات السابقة .

واعتقد ان دراسة هذا الاساطير من اصعب الابحاث واعوصها - هذا
اذا اردنا ارجاعها الى اصلها - لان العراق قد امتلأ اقوام عديدة وسكنته قبائل
وشعوب كثيرة كالأكديين والشميريين والكلدان والاشوريين والفرس واليهود
والاغريق والرومان والفرس والمرب والترك ، فقد جاءت هذه الاقوام ومعها
عوائدها واساطيرها وخرافاتنا فاختلطت بعضها ببعض والامم تلقح بعضها بعضا
افكارها وعوائدها ، والشعوب تقلد من كان اعظم منها وتقبس منها ما يطيب
لها . لذلك تراني لاعتمد بمراقبة الاساطير التي دونتها في رسالتي هذه واظن
كل الظن انها بقايا عوائد قديمة لامم قديمة كانوا يمتثلون بصحتها وصوابها
فهي اذن مزيج الخرافات التي جاءت بها الشعوب الفاتحة

واكبر برهان على ما اقول هو ما شاهدته وما اشاهده اليوم بعيني من عادة
جديدة جاءت حديثا من بلاد الانكليز الى العراق وهذه العادة هي ان الانكليز
لا يضرمون نقايا (كبريتا) ثلاث دخينات (سكاثر) معتقدين انه لا بد من ان يصيب
الثالث طامة او داهية وقد لاحظت كثيرا من شبان بغداد الحاليين يتبعون هذه
الابدية المضحكة وكما ان الخرافات موجودة لدى الاقوام الجاهلة والمنحطة

كذلك تراها عند الأقوام الراقية إلا أن الفرق هو أن أوابد الأقوام الراقية ملطقة وهي أقل سخفا من عوائد المتحطين .

اضرب لك مثلا وهو كراهية الانجليز للمعدن ١٣ وتشاؤمهم الشديد منه فإذا اموا مأدبة أو جلسوا على مائدة الطعام عدوا الأشخاص فإذا كانوا ١٣ قام أحدهم على الفور وغادر المجل .

أما سبب نشأة الأساطير فقد يكون بدافع غريزة الخوف والوهم كما يدعيه بعض المؤرخين أو سببه الجهل وعدم معرفة اسرار الطبيعة أو جهل حقائقها كما يدعيه الآخرون . أما إذا فاعزو نشأة الأساطير إلى الخوف المتمكن من الإنسان والجهل وعدم الإلمام بشؤون الطبيعة معا واعتقد كل الاعتقاد أن الأمم كلما تقدمت تقدمت أدبها وعلمها ونال أفرادها تهذيبا صحيحا انقرضت أساطيرها ورحلت عن بلادها شيئا فشيئا لأن سبب الخوف هو جهل الطبيعة فإذا عرف الإنسان أسرارها زال ما كان قائما على فؤاده من النعر والوساوس مثال ذلك : أنني كنت أعتقد وأنا طفل بأن سبب خسوف القمر هو أن «الحوت» يلمعهو كل إذا حدث خسوف فزع الناس كلهم وأنا منهم سواء كلن في بغداد أو في مدن العراق الأخرى ولا سيما النساء والأطفال والعوام الذين لم يتألوا قسما وأقرا من التهذيب فسهروا ليلتهم وضربوا الطبول وفرعوا الألواني من النحاس وربما واصلوا هذه الحالة حتى طلوع الشمس . ولما درست أسباب كسوف الشمس وخسوف القمر اتضحت لي الحقيقة وزال عني ذلك الوهم وتلك الوساوس . وأصبحت إذا خسف القمر أقبه ضاحكا من عقول الآخرين فيفهم من هذا أن جهل الطبيعة هو السبب الأول لنشأة الأساطير .

وصفوة القول أنني مقدم بين يديك أيها القاري . ما دونته في ظرف خمس سنوات من الحرافات والعوائد والأساطير بعد الجهد الجهد والتعب العظيم واني مستعد في كل وقت أن احتاج من ينكر علي صحتها وجودها اليوم في العراق مستدلا بالوقائع وآتيا بالبراهين على ذلك وما قصنت بذلك سوى خدمة التاريخ العراقي وحسبي فخرا .

أحمد حامد آل الصراف